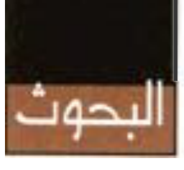


موقف مؤرخي بلاد الشام من حملة إبراهيم باشا (١٢٤٦-١٢٤٨هـ /١٨٣١- ١٨٣٣م)

د. مهند أحمد المبيضين
قسم التاريخ - كلية الآداب - الجامعة الأردنية - الأردن

لم تكن حملة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا (١٢٠٣-١٢٤هـ/ ١٧٨٩-١٨٤٨م)[١]، على بلاد الشام بين عامي ١٢٤٦-١٢٤٨هـ/ ١٨٣١-١٨٣٣م مجرد حدث انتهى تدوينه بانقضاء زمانه، إذ ظلت كتابة الحدث مستمرة حتى أواخر العهد العثماني، وأظهرت المدونات التاريخية تباين المواقف فيه بين المؤرخين في بلاد الشام، فمنهم من رآه فتحاً، ومنهم من عدَّه احتلالاً وخروجاً على السلطان العثماني، ومنهم من وقف على الحياد مكتفياً بسرد الأخبار ونقل الأحداث دونما موقف واضح.

(قدم للنشر في ١٤٣٤/١١/١٢هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٥/٩/٢٣هـ).

(١) إبراهيم باشا بن محمد علي باشا ابن إبراهيم آغا (١٢٠٤-١٢٦٤هـ/ ١٧٩٠-١٨٤٨م)، الابن الأكبر لمحمد علي باشا. نصب قائمًا على العرش نيابة عن أبيه، لكنه توفي قبل والده، وقاد حملاته العسكرية على وسط الجزيرة العربية والسودان واليونان وبلاد الشام. انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م. مج١، ص٧٠.



لم تقتصر أخبار حملة إبراهيم باشا على حروبه، بل أفردت المدونات التاريخية مساحة معقولة لذكر إصلاحاته، التي شملت تنظيم الإدارة المركزية والمالية، وتأسيس مطبعة، ومنح المسيحيين حقوقاً جديدة، وتنشيط الزراعة وتنظيم الضرائب المفروضة عليها، وحصر الجمارك وتحديدها، وتوطين البدو، وغيرها.

وهذه الإصلاحات والأحداث التي انتهت بعودة إبراهيم باشا لمصر وكفِّ يده عن التقدم باتجاه إسطنبول بعد تدخل القوى الأوروبية وروسيا، وإجباره على توقيع صلح كوتاهية في ٢٨ من ذي القعدة ١٢٤٩هـ (١٨٣٤/٤/٨م)، لم تكن تمر في الكتابة التاريخية دون أن تتأثر بميول الكتابة التاريخية واتجاهاتها، فكتابة التاريخ تظل لصيقة بما تعيشه الأمة من أحداث، وهي في حالة تدوين أخبار حملة إبراهيم باشا تكاد تختلف عن أخبار المؤرخين عن التاريخ البعيد عنهم والمنقول تواتراً إليهم، وهم في هذه التجربة قريبون من الحدث وبعضهم معاصر له، وهناك من ظل يرى آثار الحملة باقية إلى نهاية الحكم العثماني، حيث ما زالت الأحداث وآثارها ماثلة، وهو ما يجعل التاريخ أكثر من مجرد وقائع مضت، وهو ما يحتم إعادة النظر مجدداً في مواقف المؤرخين كي يرتفع الخطاب التاريخي إلى مستوى التاريخ الذي انقلبت أوضاعه وتبدلت مصائره بشكل ملحوظ في زمن الحملة.

من هنا، تأتي أهمية دراسة الأحكام التي أطلقها المؤرخون الشاميون على مرحلة الحكم المصري ١٢٤٦-١٢٥٥هـ/

١٨٣١-١٨٤٠م، من خلال البحث عن الموقف الذي اتخذه المؤرخون تجاه حملة إبراهيم باشا، وسياسته في المنطقة، وموقف الناس من أهالي "بر الشام"، دون الوقوع تحت تأثير البحث عن إيجابية للحدث، أو السعي لتأويله، بل في ربطه بزمان الأفراد والناس، وسرد المؤرخين للأحداث، وهو غالباً ما يبدو مجرد سرد يقصد التوثق والتثبت من سير الأحداث؛ لكي نتجنب الحكم على الحدث، وهو ما مارسه المؤرخون في زمان الحدث.

مؤرخو الشام والحدث:

أثرت مدة الحكم المصري لبلاد الشام بأحداثها بشكل واسع النطاق في المنطقة، وهي بداية مرحلة لظهور فئات جديدة في بنية المجتمع الشامي، كانت تعتمد في مستواها الاجتماعي على أسس فئوية ومهنية جديدة كالعمل في القناصل، أو الأعمال التجارية مع التجار الأوروبيين، أو بالاعتماد على العلاقة مع أقطاب السلطة والنفوذ في إقليم بلاد الشام، سواء أكانت رأس السلطة المصرية، أم من يمثلها من الأعيان المحليين في المنطقة(٢).

(٢) حول حقبة الحكم المصري في بلاد الشام، انظر: أسد رستم، **آراء وابحاث**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٧م. وحول أقطاب السلطة في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، انظر: خالد بني هاني، **تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحكم المصري**، دار الأوائل،٢٠٠٥. وحول أوضاع بلاد الشام قبيل الحكم المصري والموقف الغربي الفرنسي والبريطاني من الحملة المصرية، انظر: قاسم النواصرة، **الموقف البريطاني والفرنسي من الحكم المصري لبلاد الشام ١٤٢١-١٤٥٧ھ/١٣٨١-١٤٨١م**، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق، ٢٠٠٨م.

وقد اهتم المؤرخون في إقليم الشام بالحملة المصرية، وجاء التأريخ لها استمراراً لتقليد الكتابة التاريخية في المنطقة. وهذا التقليد كان قد وقف مطولاً قبل عقد من مجيء المصريين، أمام حدث لا يقل أهمية عن حكم المصريين لبلاد الشام، وهو قدوم الحملة الفرنسية لاحتلالها(٣).

وتظهر عناية أبناء دمشق في تدوين أخبار حقبة الحكم من خلال عملين تاريخيين لمؤلفين مجهولين، أولهما جاء بعنوان: حوادث الشام ما بين (١١٩٢-١٢٥٧هـ/١٧٧٨-١٨٤١م)، الذي يرصد الخلافات التي جرت بين الأرثوذكس والكاثوليك، وموقف السلطة منهما، ثم ذكر حملة إبراهيم باشا على سوريا، وأخبار حكمه وتدابيره. كما يعرض الكتاب لأخبار الحركة الوهابية وسيطرتها على الحجاز، وتأثيرها في قافلة الحج الشامي، إضافة إلى ما يرد من أخبار متفرقة عن جبل لبنان(٤).

والمؤلف الثاني هو "مذكرات تاريخية"(٥)، ويرصد أحداث دمشق خلال عقد من الزمان (١٢٤٦-١٢٥٧هـ/١٨٣١-١٨٤١م)، فيعرض إجراءات والي دمشق سليم باشا في تطبيق

(٣) حول الكتابة التاريخية في بلاد الشام والحملة الفرنسية، انظر: محمد عدنان البخيت ومهند مبيضين وحسين القهواتي، **قبسات من نصوص الأدبيات المعاصرة للحملة الفرنسية**، مجلة الندوة، عمان، المجلد العاشر، العدد ٣، ص٥٢.

(٤) مجهول، **تاريخ حوادث الشام ولبنان (١٧٧٨-١٨٤١م)**، تحقيق وتقديم أحمد غسان سبانو، ط٢، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٢م.

(٥) مجهول، **مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا**، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، د.ت.

ضـريبـة الاحـتـسـاب(٦). ومـوقف أهالي دمـشق من هذه الضريبة، كما يصف أحوال المدينة في عهد الحكومة المحلية وأخبار حملة إبراهيم باشا وحصاره مدينة عكا، ودخوله بعدها دمشق، ويصف موقف الناس من الحكم المصري وإجراءاته الإدارية، ويعرض موقف أهالي المدينة من الامتيازات التي منحها المصريون لغير المسلمين. ويمتاز هذا الكتاب بأنه قد ألفه أحد الموظفين العاملين في الحكومة المصرية، فهو أقرب للموثّق في أسلوبه.

ومن أبناء حلب عاين كامل البابي الحلبي مدة الحكم المصري مبتدئاً بسرد العلاقة بين محمد علي باشا ووالي عكا عبدالله باشا، وأسباب توترها وما نتج منها، واهتم بإيراد أخبار حلب في ظل حكم إبراهيم باشا مبدياً إعجابه بتنظيم أمور البلاد من جهة، ومبرزاً موقف الحلبيين منه بعد أن رأوا شدته وسطوته في الحكم(٧).

ويدون محمد كرد علي - وهو متأخر عن زمان الحملة المصرية - الأحداث التي جرت خلال الحكم المصري، محاولاً أن يضع أسباباً لذلك التحرك العسكري الذي قادته جيوش محمد علي تجاه بلاد الشام، ثم يذكر أخبار الحملة المصرية

(٦) تولى سليم باشا حكم دمشق خلال السنوات (١٨٣٠-١٨٣١م) وكانت الضريبة المفروضة على الناس تعرف باسم الصليان وهي رسم يؤخذ على الحراسة والحماية. انظر: مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٢٣.

(٧) كامل البابي الحلبي، **كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب**، تحقيق شوقي شعث ومحمود فاخوري، دار القلم السوري، حلب، ١٩١٣م، ص٢٧٨.

بدءاً من عكا، ويرصد موقف أهالي لبنان من الحكم المصري، ويتوقف عند إصلاحات إبراهيم باشا في الشام، ومن ثمّ يُجمل أخبار الثورات المحلية في إقليم حوران وبلاد فلسطين، التي أدت في النهاية إلى إضعاف الجيش المصري وانتهت برحيله(٨).

ولم يكن تدوين أحداث الحكم المصري في جبل لبنان أقل حظاً منه لدى مؤرخي دمشق، فقد أغنى المؤرخون اللبنانيون الحدث في جوانبه المتعددة، من خلال البحث عن إيجابية الحدث التاريخي وتفسير عِلَلِه، وقد تقدم المؤرخون من باب المشاركة والمشاهدة في الأحداث أو عبر التذكر. ومن هذه المدونات كتاب "كشف اللثام"، لنوفل نعمة الله نوفل، الذي بدأ الكتابة عن تاريخ سوريا ولبنان منذ عام ٩١٦هـ/١٥١١م، حتى جلاء المصريين عنها سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤١م(٩).

وهناك كتاب تاريخ الأمراء الشهابيين(١٠)، الذي يتناول العلاقة بين محمد علي باشا والي مصر وعبدالله باشا والي عكا، فيعرض أسباب توتر العلاقة بين الطرفين، وحصار إبراهيم باشا لعكا ومعاركه في حمص وقونية. ويُعنون فصلاً بعنوان: "إبراهيم باشا والسوريين". واهتم شاهين مكاريوس-

(٨) محمد كرد علي، **خطط الشام**، مكتبة النوري، دمشق، ج٣، ص٤٣-٧٢.

(٩) نوفل نعمة الله نوفل، **كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام**، تحقيق ميشال أبي فاضل، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٠م.

(١٠) سليم هشي (محقق)، **تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم**، منشورات المديرية العامة للآثار بيروت، ١٩٧١م.

في الكتاب الذي أخرجه - بفترة الحكم المصري، فأجملها تحت عنوان: أيام إبراهيم باشا[١١].

ويضعنا رستم باز من خلال مذكراته أمام الحكم المصري مستخدماً صفة "الفتح" ؛ إذ يبدأ أخبار "الفتح المصري" بذكر وصول إبراهيم باشا إلى العريش، ثم حصاره عكا، وبعدها يذكر معارك المصريين في طرابلس وحمص، ثم يعرض موقف الدول الغربية وتدخلها في الحدّ من التوسع المصري واقتصاره على سوريا[١٢]، ويسرد أخبار الثورات المحلية وتمرد الأهالي على الحكم الجديد في حوران وشبعا والمتن وغيرها[١٣].

وتعامل أسد رستم مع الحملة في عملين: أولهما التوثيق لأخبار الحملة وأوامر إبراهيم باشا للأعيان والأمراء وإجراءاته الإدارية وخط سير حملته[١٤]، وثانيهما نشره عدة مقالات في مجلة الكلية الإنجيلية السورية، مبدياً نظرة إيجابية واضحة للحكم المصري، من خلال سياقه إجراءات إبراهيم باشا وأعماله في البناء، والتنظيم، والمشروعات

(١١) شاهين مكاريوس، **حسر اللثام عن نكبات الشام** (نسخة مصورة، مكتبة الجامعة الأردنية)، ط١، مصر، ١٨٩٥م، ص٤٥.

(١٢) رستم باز، **مذكرات رستم باز**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٥من تحقيق فؤاد البستاني، ص٢٨-٢٩.

(١٣) المصدر السابق، ص٣٢-٣٥.

(١٤) أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، ٤ مجلدات، مطبوعات الجامعة الأمريكية، بيروت ١٩٣٠م. وتضم المجلدات الأربعة توثيقًا وتدقيقًا للوثائق السياسية للأعوام ١٢٤٧-١٢٥٥هـ.



العمومية، وزراعة الأرض، وهو يأخذ على الناس تذمرهم منه بسبب المشروعات العمومية. ويشير رستم بوضوح إلى موقف الناس من العمل بالسخرة وفرض الضرائب والخدمة العسكرية في مناطق بعيدة؛ وهو ما ترتب عليه نزوح كثير من السكان إلى خارج البلاد السورية(١٥).

وعند النظر إلى المصادر السابقة، نجد أنها دونت الحملة المصرية واصفة لها ومبينة مواقف الناس منها، والمسألة التي أردنا الإشارة إليها في الوقوف على التعامل الوصفي مع الحملة في مصادر القرن التاسع عشر مع الامتداد للقرن العشرين، أنها لم تكن قادرة على تجاوز الحدث، وبرغم جاذبية القرن التاسع عشر بوصفه قرن الاستعمار وبروز التحالفات الدولية التي عملت أول القرن العشرين على تقسيم المنطقة وتوزيع النفوذ الغربي فيها، فإن الحدث التاريخي في حملة إبراهيم باشا ظل مفصلياً في تاريخ بلاد الشام خلال القرن التاسع عشر وامتداداته الزمنية اللاحقة، وقد يكون البداية التي جعلت الغرب ينتبه لخطورة قيام دولة قوية في مصر وبلاد الشام على أنقاض الضعف العثماني، وهو ما استدعى تحطيم القوة المصرية وإعادتها وتحجيمها في مصر.

---

(١٥) نشر أسد رستم مقالاته في مجلة الكلية الإنجيلية السورية، بيروت، المجلد العاشر، العدد ٣، كانون الثاني ١٩٢٤م، ص١٣٣-١٣٧، والعدد ٤، شباط ١٩٢٤م، ص ١٧٠-١٧٣ والعدد ٥، آذار ١٩٢٤م، ص٢١٨-٢٢٢، والعدد ٧ آيار ١٩٢٤م، ص٢٢١-٢٢٥.

صورة الحدث والوعي التاريخي:

تشير المصادر التاريخية الشامية إلى العلاقات المبكرة - قبيل حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام - التي ربطت محمد علي باشا بأقطاب السلطة وأعيان الشام وعلى الأخص بشير باشا في لبنان. ويبدو أن باشا مصر نسج تلك العلاقات ووطدها كمقدمة لخطوته التالية التي انتهت بسيطرته على سوريا.

يبدأ حضور محمد علي مؤثرًا رئيساً في الاستقرار السياسي للبلاد الشامية في لحظة الصراع السياسي التي دارت بين والي دمشق درويش باشا ووالي صيدا عبدالله باشا، وهروب أمير منطقة الجبل في لبنان الأمير بشير الشهابي وأبنائه إلى مصر. وفي أثناء الصراع السياسي بين درويش باشا وعبدالله باشا أصدرت الدولة العثمانية فرماناً بعزل والي صيدا عبدالله باشا فانحازت عساكر الدولة إلى والي دمشق درويش باشا "وطال الخصام وامتدّ فتكدرت الدولة العلية وكانت راغبة في إذلال عبدالله باشا سيما وقد ظهر لها أنه المعتدي فوعدت درويش باشا بولاية صيدا، وأمرت مصطفى باشا والي حلب بنجدة درويش باشا..."(١٦).

وانتهى الصراع على النفوذ بين والي دمشق ووالي صيدا، بانتصار والي دمشق، وتراجع أمير جبل لبنان بشير الشهابي عن تأييد والي صيدا، بوصف الأخير "خارجاً عن خاطر

(١٦) نوفل نعمة الله نوفل، **كشف اللثام**، ص٢٦٣؛ طنوس الشدياق، **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، مكتبة الفرقان، بيروت، ١٩٥٤م، ج١، ص٤٥٤.

السلطان محمود... وأمره - مصطفى باشا والي حلب - أن يصرف عساكره ويرجع إلى بلاده مؤدياً الطاعة لدرويش باشا، وأرسل له صورة الفرمان، فأذعن الأمير ونهض حالاً بالعساكر ثم صرفهم إلى أوطانهم ... ورحل الأمير بولديه وأتباعه إلى مصر واستقبله محمد علي باشا بالترحاب والإكرام"(١٧).

ومع أن المصادر تروي أخباراً مختلفة عن هذه الحقبة المملوءة بالصراعات بين أقطاب السلطة والقوى المحلية التي سبقت حملة إبراهيم باشا، وهي رواية لا نملك تأكيد وعي كل المؤرخين لأحداثها؛ لأنها مجرد أحداث متسلسلة، تراكمت وتعددت صيغها العامة، دون أن تكشف عن فهم واضح من المؤرخين للزمان ومجرياته، وهو زمان كانت المنطقة تخضع فيه لصراع القوى المحلية، وضعف الحكم في المركز العثماني، وبداية الاختراق الغربي والتنافس على المنطقة ثم استعمارها.

وتكشف المصادر عن امتلاك محمد علي باشا معرفة كافية للتعامل مع الزعامات المحلية في بلاد الشام، وهو ما جعله شريكاً في استقرار المنطقة، كما أنه حاول أن يوجد أجواءً ملائمة لخطوته التالية المتمثلة في الزحف نحو بلاد الشام، وضمها إلى حكمه لتحقيق أمانيه التوسعية، ووفق المصادر التاريخية فإن باشا مصر أرسل إلى عكا في سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م وفداً غرضه في الظاهر إزالة الخلاف بين الدولة العثمانية وعبدالله باشا والي صيدا، ولكن كانت وراءه

---

(١٧) نوفل نعمة الله، **كشف اللثام**، ص٢٦٣.

مهمة سرية ترمي إلى اعتماد قوة محلية يُعتمد عليها عند الحاجة(١٨).

ومع ذلك، لا تشفُّ متون التاريخ الشامي عن تفسير واضح ووعي لطموح حاكم مصر آنذاك، ولم تدرك منازعه الاستقلالية عن الباب العالي، فبينما رحبت المصادر والكتابات المسيحية بالوصول والإجراءات المصرية وعدّته فتحاً جديداً، فإن الكتابات الأخرى وقعت بما كان يسود الكتابات التاريخية الإسلامية من اهتمام بالحدث السياسي، بوصفه مجرد حدث؛ لذا فإنها تفتقر إلى تقديم الأحكام التاريخية التي تغيب بسبب تقديم الأسباب التي قادت إلى الحملة المصرية للاستدلال على مطامع والي مصر بحكم الشام، وليس أولها التدخل في الصراع بين والي صيدا ووالي دمشق، أو في الانحياز لمصلحة بشير الشهابي ضد خصومه آل جنبلاط.

وهي وإن ذكرت أسباب زحفه على بلاد الشام لما فيها من الأخشاب، والفحم الحجري، والنحاس، إضافة إلى تمتعتها بموقع إستراتيجي مهم في الطريق إلى الآستانة، وهي الحاجز بين شبه الجزيرة العربية والعاصمة إسطنبول، فإن التفسير التاريخي الذي يُؤوّل الأحداث إلى معانٍ أخرى غير المعاني الظاهرة ظل نادراً(١٩).

---

(18) Wilkinson, Sir Gardner. *Modern Egypt and Thebes*, London, 1843, vol. 2, p. 545.

(١٩) للمزيد في دوافع محمد علي وأسباب سيطرته على بلاد الشام، انظر: سليمان أبو عز الدين، **إبراهيم باشا في سوريا**، المطبعة العلمية، بيروت، ١٩٢٩م، ص٤٨-٥٨؛ انظر كذلك: نقولا زيادة، **أبعاد التاريخ اللبناني الحديث**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٥٨.



لذلك، تتفاوت صورة الحدث التاريخي لدى المؤرخين الشاميين، وهم يقدمون أحوال البلاد قبل قدوم المصريين، في صورة من انعدام الأمن والفوضى وفساد الإدارة التي أرهقت الرعايا بالضرائب، فيقول نوفل نعمة الله نوفل: "أما دمشق فمن سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م إلى سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م، لم تكن على شيء من الراحة، سيما للسابلة لأن التعدي كان من العسكر الذين يعوزهم النظام ولهم سطوة فلا يسألون عما يعملون...، والخصام مستمر بين حزب الإنكشارية وحزب "القبوقول" ويؤدي أحياناً إلى قفل الحوانيت وإهراق الدماء وأعظم التعديات على أهل العرض والذمة..."[٢٠].

ومع أن الحدث التاريخي للحملة المصرية ظهر كأنه امتداد توسعي لوالي مصر تحت سلطة السلطان العثماني، ودونما خروج على طاعته في غالبية المصادر، إلا نوفل نعمة الله عدّ قدوم المصريين ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م إلى بلاد الشام يمثل سنة الحوادث المهمة والانقلابات العظيمة في البلاد السورية، وهي - كما يرى - سنة انتقال البلاد إلى حكومة مصر وإدخالها التمدن[٢١]، ومع أن هذا الوصف قاد إلى حكم تاريخي على حدث الوصول المصري، فإن الممهدات الوصفية له كانت تقليدية وعادية، ولم تخرج عن الوصف الذي كان يُقدم مطلع كل سنة عن أحوال البلاد من قبل مؤرخي دمشق ومدن بلاد الشام الأخرى.

(٢٠) نوفل نعمة الله نوفل، كشف اللثام، ص٢٧٠-٢٧١.

(٢١) المصدر السابق، ص٢٧١.

ونوفل نعمة الله يذكر ابتداء الحملة المصرية، بصفة حدث افتتاحي لأخبار العام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م دونما إغفال لأسبابها، مبدياً وعياً وإدراكاً مقبولاً للحدث وأهميته. فهو يسمي تحركات الجيش المصري بالفتوحات المصرية، ويعرض موقف السلطة العثمانية التي أعلنت وفق منشورها السلطاني عصيان محمد علي باشا وعزله عن حكومة مصر(٢٢)، ومع ذلك فهو لا يوضح موقفه من الإجراء العثماني الذي انتهى بإعلان محمد علي باشا أميراً عاصياً على سلطان إسطنبول.

وتذكر المصادر الإجراءات والتدابير التي اتخذها إبراهيم باشا في لبنان، سواء قبل حصار عكا أم بعده. كما تروي رد الفعل من جانب الدولة العثمانية(٢٣) تجاه الزحف المصري، ويبدو أن نوفل نعمة الله معجب بتصرف إبراهيم باشا مع عبدالله باشا والي صيدا، الذي كان يقود الجيوش في عكا لمواجهة المصريين، "فقد أعطاه الأمان وطيب قلبه وسار به إلى قصر البهجة ثم أرسله بحراً إلى الإسكندرية". وينتهي خبر حصار عكا عند نوفل نعمة الله نوفل بوصول عبدالله باشا إلى الإسكندرية ولقاء محمد علي باشا الذي "جعل له أن يحف به عند خروجه موكب شبيه بموكب محمد علي ذاته..."(٢٤).

---

(٢٢) المصدر السابق، ص٢٧٩.

(٢٣) نوفل نعمة الله، **كشف اللثام**، ص٢٧٩، "وصدر أمر الدولة لمحمد باشا والي حلب بجمع العساكر وتسييرها ضد المصريين في سوريا...". ويقول كاتب المذكرات الشامية: "وبقي الحصار على عكا ستة أشهر كوامل...". مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٤٨.

(٢٤) المصدر السابق، ص٢٨١.

بعد عكا، كانت دمشق قبلة الجيش المصري، وفق المصادر المحلية، كان الأمير بشير الشهابي لا يميل إلى امتداد الحكم المصري نحو دمشق(٢٥)، ولم يكن موقف الدمشقيين أحسن حالاً من أهالي عكا، إذ سرعان ما خرجت القوات الشامية بقيادة والي دمشق والتقوا الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا قرب قرية داريا، واضطر الدمشقيون إلى التسليم بعد أن أذهلهم المعسكر المصري بدقة تنظيمه "فجزع الدماشقة وخافوا لأنهم لم يعهدوا مثل ذلك من قبل"(٢٦).

وتتوالى في المصادر أخبار المعارك التي خاضها إبراهيم باشا في حلب وحمص وبوغاز بيلان(٢٧)، كما تذكر ثورات أهالي نابلس سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م، ومن بعدها الخليل، ثم ثورة دروز حوران سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م بقيادة شبلي العريان، وثورة عرب الصفا سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م، وتنتهي تلك الثورات بانهزام الجيش المصري في معركة نزب/ نزيب/ نصيبين في ١١ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ (٢٤ حزيران ١٨٣٩م)(٢٨).

(٢٥) يقول نوفل نعمة الله: "لما اتجه إبراهيم باشا بعسكره لفتح دمشق فامتعض الأمير بشير باطناً لظنه أن المهمة التي كان يقصدها محمد علي هي فتح عكا فقط". **كشف اللثام**، ص٢٨١.

(٢٦) المصدر السابق، ص٢٨١. وقارن مع: مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٤٨.

(٢٧) بوغازبيلان: قرية تركية في جبل الأمانوس بين حلب والأسكندرونة انتصر فيها إبراهيم باشا على الأتراك سنة ١٨٣٢م. نوفل نعمة الله، **كشف اللثام**، ص٢٨٢؛ مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٥٤، ٥٧، ٥٨.

(٢٨) يمكن متابعة تفصيلات الثورات وحركات التمرد ضد الحكم المصري في: أنطون كتافاكو، **فتوحات إبراهيم باشا المصري**، مطبعة القديس يوسف، حريصا، ١٩٣٧م، ص٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٦، ٦٢، ٧٥؛ نوفل نعمة الله نوفل، **كشف اللثام**، ص٢٨٦-٢٩٠؛ مجهول، **مذكرات تاريخية**، ص٧١، ٧٣، ٧٧، ٨١، ٨٣، ٨٧، ٩٠، ٩٣، ٩٨، ١٠٥، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٩.

وإذا كان ما سبق يبين ما كتبه نوفل نعمة الله وصاحب المذكرات التاريخية عن أخبار الحملة المصرية، فإن المطران الدبس الذي بدأ كتابه "تاريخ سورية الديني والدنيوي" بالتذكير بأهمية علم التاريخ(٢٩)، يُفسر الحملة وأسبابها ويبدو على وعي بها من حيث إنه فسر تقدم محمد علي باشا بإرسال ابنه إبراهيم بجيش جرار لضم سورية لملكته في مصر، نتيجة انشغال القوى الغربية، وبخاصة فرنسا وبريطانيا في الحرب التي شنها الثوار اليونانيون ضد الإمبراطورية العثمانية في الفترة الممتدة بين ١٢٣٦-١٢٤٧هـ/ ١٨٢١-١٨٣٢م(٣٠).

والدبس يعي الحدث، وبقدر ما يحاول طرح المواقف والخطوط العامة التي واجهتها الحملة وباقتضاب، بصفتها جزءاً متمماً من تاريخ سورية العام، فإنه يفسر الأمور في سياق الصراع الدولي على المنطقة، مدللاً على وعيه بإبراز المواقف الغربية التي رفضت تقدم إبراهيم باشا بعد معركة قونية في رجب ١٢٤٨هـ/ ديسمبر ١٨٣٢م، والتي أثارت قلق الدول الأوروبية وكذلك روسيا القيصرية آنذاك وهو يقول: "وكانت الروسية أكثر قلقاً لمطامعها المعلومة فعرضت على الدولة العلية أن تساعدها على مقاومة الجيش المصري فقبلت الدولة ذلك، وأحلت روسيا على شواطئ الأناضول خمسة عشر ألف جندي لحماية الآستانة، فاضطربت فرنسه

(٢٩) المطران يوسف الدبس، **تاريخ سوريا الديني والدنيوي**، دار نظير عبود، ١٩٩٤م، بيروت، ج١، ص٢٠.

(٣٠) المصدر السابق، ج٨، ص١٧٠.



وإنكلترا وخشيت من تدخل روسيا، وألحت على الباب العالي أن يسرع بالاتفاق مع محمد علي باشا قبل أن يتفاقم الخطب.."[٣١].

تقييم الحدث في ضوء خطابه:

لا نملك القدرة على الحكم بأن مؤرخي بلاد الشام عشية حملة إبراهيم باشا وفي أثنائها وبعدها كانوا على تمام الوعي بأنهم يدونون تاريخاً مكملاً أو منفصلاً عن مجمل حوادث تاريخ زمانهم، فهم وإن امتدحوا إجراءات إبراهيم باشا الإدارية "فافتتح حكمه بترتيب المجالس بالبلاد، جاعلاً لكل لبلده مجلساً تنتخب الحكومة أعضاءه من الإسلام والنصارى"[٣٢]، وهو ما سموه بانتقال البلاد لحالة التمدن، إلا أن ذلك التاريخ ظل حدثاً مرتبطاً بالراهن، بدليل أنه وبمجرد أن غادر إبراهيم باشا المنطقة انتهى معه، وعادت الكتابة التاريخية لتمارس فعل التدوين وكأن ما مرت به المنطقة محض نزهة عسكرية للجيش المصري، وهنا تقفز أسئلة عدة من بينها : ألم يفهم المؤرخون أو يتلمسوا ذلك الفهم، بأن حملة إبراهيم باشا تعكس تفوق الطرف على المركز، وأنها جاءت في زمن عبرت به الحداثة الأوروبية عن تفوقها الرافض لسلطة قوية في الشرق؟

قد يكون هذا الفهم ظهر بشكل بسيط لدى نوفل نعمة الله ويوسف الدبس. ومع ذلك، وبالرغم من عدم وجود ذلك

---

(٣١) المصدر السابق، ج٨، ص١٧٤.

(٣٢) نوفل نعمة الله، **كشف اللثام**، ص١٩٥.

الفـهم بشكل عـام عند المؤرخين، فـإن ثمـة مـلامح وعي تقصّدت إبرازه المقارنة بين حكم المصريين وحكم العثمانيين، فهذا نوفل نعمة الله يأخذ على قائد القوات المصرية جملة مآخذ، ويوازن بين حكم المصريين وحكم الدولة العثمانية قائلاً: "لم يلبث الأهلون طويلاً حتى عرفوا أنهم استجاروا من الرمضاء بالنار؛ لأن إبراهيم باشا كان قائداً عسكرياً وفاتحاً ظاهراً، فالناس بالنسبة إليه كالفاتح والمغلوبين، ولم يكن في إبراهيم شيء من الخير، سيما وأنه كان قاسياً عاتياً مكروهاً حتى من أتباعه، وكانت مدة وجوده في سوريا مشغولة بالحروب والمطامع.."(٣٣)، وهو هنا يقدم حكماً واضحاً على تجربة حكم إبراهيم باشا للمنطقة.

وتحمل المصادر نقداً لتعديات العسكر على بيوت الناس وفرض الرسوم والضرائب التي قُررت على الناس دون حق ومنها ضريبة "الفردة"(٣٤)، ورسم العروسين، ومنع عوائد القضاة، وإخراج الناس من بيوتها لإسكان العساكر، وتعطيل المدارس والمساجد.

---

(٣٣) المصدر السابق، ص٢٩٥.

(٣٤) الفردة: ضريبة فرضت على الذكور على أساس ١٢ بالمئة من ريع المكلف على أن تراوح بين ١٥ و٥٠٠ قرش وأعفي منها رجال الدين وعمال الحكومة، وقد أشار صاحب مذكرات تاريخية إلى أنها فرضت على كل من بلغ الرابعة عشرة، انظر: **مذكرات تاريخية**، ص١٦٧؛ نوفل، كشف اللثام، ص٢٩٧؛ كتافكو، **فتوحات**، ص٣٢. ويرى نوفل أن القصد منها مساواة المسلمين بالمسيحيين وأنها شبيهة بالجزية. نوفل، **كشف اللثام**، ص٢٩٧.



ويروي نوفل نعمة الله سلوك الجيش المصري والجند بقوله: "وكانوا يستعملون التعذيب سبيلاً لاستنطاق المظنون بهم والتفنن بالتعذيب موكول للضابطة، وأهون ما هناك ضرب السياط. وكان له [إبراهيم باشا] تفنن في سفك الدم وقتل الناس واعتذارات لا تنطبق عما اشتهر به من العدل والمدنية"(٣٥).

وتقدم مادة كتاب "المذكرات التاريخية" رؤية أهل الشام للحكم المصري، إذ إن كاتبها كان أحد أعضاء مجلس إدارة المدينة، وتساعد هذه المذكرات على موازنة أوضاع مدينة دمشق قبل الحملة المصرية وبعدها، فقد اشتكى أهالي المدينة إلى السلطان العثماني من سوء إدارة والي دمشق محمد سليم باشا، وبالرغم من تأكيد أهالي دمشق لولائهم للسلطنة العثمانية(٣٦) فإنهم عاشوا حالة من الفوضى وانعدام الأمن قبل قدوم الجيش المصري.

لا يخفي كاتب المذكرات قلق الدمشقيين وارتيابهم من وصول الجيش المصري إلى عكا بقوله: "وأناس يقولون إنه حاصر الشام وفيما الناس بين التصديق والتكذيب تحقق الأخبار... وأهالي دمشق زادوا هماً لأن أكثر الناس يتكلموا أنهم حاضرون دون أمر سلطان وأنهم متى خلصوا من عكا

---

(٣٥) نوفل نعمة الله، **كشف اللثام**، ص٢٩٨.

(٣٦) جاء في آخر نص الشكوى: "أفندم، الشكوى إلى الله ولكم، لأننا نحن عبيدكم ورعاياكم وخاضعين لركابكم وطائعين لأوامركم نرتجي مراحمكم بإرسال سايس من بعض سُياسكم لأجل أن يحكم فينا حكم المولى على العبيد". مجهول، **مذكرات**، ص٣٢.

لا بدَّ من حضورهم للشام والبعض يقولون إنهم بأمر الدولة العلية..."[٣٧]، لكن نقل صاحب المذكرات لمشاعر الدمشقيين وقلقهم، لم يؤثر في رأيه بالحملة.

في بدء الحدث التاريخي يرى الدمشقيون، وفق المذكرات التاريخية، محمد علي باشا وأولاده أنهم خارجون على طاعة السلطان العثماني، وأن هذا الخروج قد أوجب غضب السلطان[٣٨]، لكن تصحيح هذه النظرة وتعديلها لم يوضحه الكاتب.

وعلى الرغم من استخدام صاحب المذكرات صيغة "الفتح" للتعبير عن سيطرة القوات المصرية على المدن الشامية، فإنه لا يفسر ذلك، ويشير إلى دخول إبراهيم باشا الجامع الأموي نهار الجمعة، وحيرة الخطيب لمن يرفع الدعاء، وحينها أشار إبراهيم باشا حين سأله الخطيب بالقول: "إنه عبد السلطان وأن يخطبوا باسم السلطان ويدعوا لمحمد علي باشا".

ثم يذكر بعد ذلك ترتيبات الإدارة في الشام، ويبدو صاحب المذكرات معجباً بسلوك الجند المصري، على خلاف نوفل نعمة الله نوفل الذي انتقد تعديات العسكر، وتعذيبهم الناس، وضربهم بالسياط[٣٩]، إذ إن صاحب المذكرات يمدح سلوكهم "لعدم ثقلهم على أحد وعلى المزروعات بقوله: "وكانت أيام فواكه ما أحد يسترجي منهم أن يمد يده إلى شجرة ولا أحد يقدر يتطلع بحرمة أو في ولد..."[٤٠].

(٣٧) مجهول، **مذكرات**، ص٤٠-٤١.

(٣٨) المصدر السابق، ص٤٦.

(٣٩) نوفل نعمة الله، **كشف اللثام**، ص٢٩٨.

(٤٠) مجهول، **مذكرات**، ص٥٠.





يظهر إعجاب كاتب المذكرات التاريخية بشخصية إبراهيم باشا، من خلال الأوصاف التي يستخدمها والألقاب التي يطلقها عليه؛ فهو "الليث الغضنفر" حين رحل إلى حمص[٤١]، "السبع الظافر" عندما وصل من حماة، "السبع الكاسر"[٤٢] عندما اقترب من حماة، هذه التحولات في الصورة الدلالية يبدو أنها تستلهم شكليات الكتابة التاريخية في زمن العصور الصليبية.

أما كاتب "تاريخ الأمراء الشهابيين"، فيبدو محايداً عند روايته لأخبار إبراهيم باشا في سوريا، فهو يذكر أسباب توتر العلاقة بين محمد علي باشا وعبدالله باشا والي صيدا[٤٣]، ويروي أحداث حصار عكا[٤٤]، ومعركة حمص[٤٥]، وجمع السلاح من السكان[٤٦]، وتمرد الدروز في حوران[٤٧]، وذلك دون أن يبدي نقداً أو تأييداً، أو حتى مجرد وصف يحمل أي دلالة أو نظرة للحكم المصري.

ويظهر موقف شاهين مكاريوس واضحاً تجاه مرحلة الحكم المصري، ويبدو منطلقه في موقفه بيناً لأسباب ترتبط بموقف إبراهيم باشا وسياسته في معاملة أهل الذمة، إذ

(٤١) المصدر السابق، ص٥١.

(٤٢) المصدر السابق، ص٥٧.

(٤٣) مجهول، **تاريخ الأمراء الشهابيين**، ص٢٠١.

(٤٤) المصدر السابق، ص٢٠٢.

(٤٥) المصدر السابق، ص٢٠٤.

(٤٦) المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٤٧) المصدر السابق، ص٢٠٦.

يقول مكاريوس: "ويعد حكم إبراهيم باشا بداية عصر التنوير والإصلاح، فقد كان الذمي قبيل أيامه لا يعد نفسهُ من الآدميين، فلما انتشرت راية العدل وعم الأمن وتساوى الناس أمام الحاكم وظهرت القوة التي كانت في الصدور خطا النصارى الخطوات الواسعة في ميدان الحضارة ونشطوا إلى القيام بالأعمال الكبيرة..."(٤٨).

ويقدم المطران يوسف الدبس أخبار الحقبة المصرية في بلاد الشام، بتفصيل دقيق(٤٩)، ذاكراً الظروف التي مهدت لتوسع محمد علي العسكري في المنطقة(٥٠)، ثم خروج الجيش المصري وسيطرته على مدن الشام، وانتصارات إبراهيم باشا على جيوش الدولة العثمانية والقوى المحلية(٥١).

ويلاحظ على الدبس تجنبه الحديث عن إجراءات الحكومة المصرية وتنظيماتها، مع قربه من أحداث المدة الزمنية(٥٢)، وإذا كان لديه موقف تجاه الحدث فهو يظهر

---

(٤٨) مكاريوس، **حسر اللثام**، ص٤٥.

(٤٩) الدبس، **تاريخ سوريا**. ج٨، ص١٦٩.

(٥٠) المصدر السابق، ج٨، ص١٧٠.

(٥١) المصدر السابق، ج٨، ص١٧١، ١٧٢، ١٧٣.

(٥٢) مما يشير إلى ذلك القرب قوله:" ومما أذكره وأنا حدث لي من العمر سبع سنين أني أبصرت وأنا في رأس كفيا في أوائل تشرين الأول سنة ١٨٤٠م، عموداً ضخماً من الدخان ارتفع في الجو وسمعت صوتاً أشد من صوت المدفع ثم بلغ الخبر أن العسكر المصري عند قيامه من قلعة طرابلس أشعل ما كان فيها من البارود". الدبس، **تاريخ سوريا**، ج٨، ص١٨٠.



بشح شديد لا يُفصله، لكنه يستنتج من خلال وصفه لخصوم إبراهيم باشا، كقوله:" ورجعوا إلى أوطانهم صاغرين"(٥٣)، أو في ميله نحو وصف شجاعة إبراهيم باشا، وتآمر الدول الأجنبية على مشروع والده التوسعي(٥٤)، وهي نظرة تتجنب الخوض في سلبيات الحكم المصري، أو إظهار مدى الاستجابة الشعبية للحكم المصري أو رفضه.

وفي سياق مختلف عن نهج مؤرخي الحوليات واليوميات الذين تتبعوا الأحداث بتفصيلاتها، تبدو لنا أعمال محمد كرد علي وأسد رستم وسليمان أبو عز الدين، وقد تحررت من التاريخ الحولي، مقدمة أوصافاً عامة على الحملة وأهم إجراءات إبراهيم باشا الإصلاحية ومواقف الناس منه، ويبدو محمد كرد علي في خططه معجباً بأعمال إبراهيم باشا، ويصف أعماله "بالجليلة" وهو يذكر هذه الأعمال بتقدير واضح، وهي: "ترتيب المجالس الملكية والعسكرية، وإقامة مجلس شورى، وتحديد نظام الجباية والخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة، والعدل دون تفاوت بين مذاهبهم وطبقاتهم". ومما يحسب للحكم المصري -حسب محمد كرد علي- "إبطال المصادرات، وتقرير حق التملك، وتوطيد الأمن، وإحياء الزراعة والتجارة والصناعة واستخراج المعادن والفحم"(٥٥).

---

(٥٣) المصدر السابق ج٨، ص١٧٣.

(٥٤) المصدر السابق، ج٨، ص١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨.

(٥٥) كرد علي، **خطط الشام**، ج٣، ص٥٧.

ويمضي كرد علي في ذكر محاسن الحكم المصري، فهو يمتدح آثاره على عمران البلاد السورية وإحياء القرى التي كانت قد ضُربت وهجرها أهلها، إضافةً إلى إعجابه بسياسة إبراهيم باشا بتقريب العلماء والشعراء وفتح الباب أمام ممثلي الدول الأجنبية من القناصل، ويخلص إلى القول: "وعلى الجملة: إن الناس حمدوا حكومة محمد علي في الشام ولم يتبرموا منها لو لم يقم ابنه إبراهيم عملاً بإيعاز من أبيه بتنجيد الشباب، ولو لم يثقل كاهل الآهلين بالضرائب فإن هذا مما نفرت منه القلوب، ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل أهل حلب ودمشق"(٥٦).

يأخذ كرد علي على إبراهيم باشا أنه أخطأ في تطبيق نظام التجنيد، ويرى أنه " كان عليه أن يقنع والده بالعدول عنه إلى حين، فمسألة التجنيد قللت من أنصار الحكومة، لقلة اعتياد الناس الجندية في ذاك العصر، وقد أصبح القوم يعدون التجنيد من باب إلقاء النفس في التهلكة، وزال من الأفكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد الشريعة الشريف، وهذه الروح كانت قد خلفت في الأمة بعد أن حكمها الغرباء قروناً"(٥٧).

في محاولة من كرد علي لتعليل المواقف الشعبية عزا تخلي الناس عن دعم الحكم المصري إلى جملة أسباب، على رأسها السياسات التي طبقها إبراهيم باشا، وكانت قاصمة الظهر

---

(٥٦) المصدر السابق،ج٣، ص٥٨.

(٥٧) المصدر السابق،ج٣، ص ٦٠.



سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م، إذ يقول: "بدأ الاشمئزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م لما صدر أمره إلى ابنه إبراهيم باشا باحتكار أصناف الحرير للحكومة وبضرب ضريبة جديدة على الأهالي وبتجهيز عدة الإيالات[٥٨]، وزاد الحنق لنزع السلاح فابتدأت الثورة..."[٥٩].

وبالرغم من تلك النهاية، يخلص كرد علي إلى أن حسنات حكومة محمد علي في الشام أكثر من سيئاتها، فقد وضعت أصول الإدارة والجباية ورفعت أيدي أرباب الإقطاعات وأعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم[٦٠]. وهو يرى أن "حكومة محمد علي أثبتت أن المصري بل العربي إذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته، وكانت حكومة محمد علي من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة أو أربعة قرون، بل إن الشامَ في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلاً عما يماثلها"[٦١].

ويعتقد كرد علي أن أيام الحكم المصري جاءت نموذجاً في الإدارة، ونجده يأخذ على سكان الشام مقاومتهم ورفضهم للحكم المصري بقوله: "ولعل أبناء الشام أيقنوا بخطئهم في

(٥٨) استخدم مصطلح (إيالت = إيالة) عند العثمانيين في أواخر القرن السادس عشر بشكل رسمي للدلالة على أكبر وحدة إدارية. انظر: فاضل بيات، **الدولة العثمانية في المجال العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧م، ص٤٩.

(٥٩) كرد علي، **خطط الشام**، ج٣، ص٦٣.

(٦٠) المصدر السابق، ج٣، ص٦٧.

(٦١) المصدر السابق، ج٣، ٦٨.

الانتقاض على الحكومة المصرية وهي مثلهم عنصراً ولغة وعادات، أنهم كانوا على ضلال في الحنين إلى حكم العثمانيين وكان على الشاميين منذ عهد المصريين أن يدركوا أن الدولة دب فيها الفساد، وأن من العناء رياضة الهرم، وأن الهرم إذ نزل في الدول لا يرتفع"[٦٢].

يبدو كرد علي منحازاً بشدة في تقييمه للمرحلة والحدث التاريخي، وهو ما يعني ابتعاده عن الحياد، حتى إننا نجده يرى أن المقاومة للحكم المصري لم تكن شامية، وينفي عنها صفة العروبة بقوله: "ولو نظرنا إلى ما وقع لإبراهيم باشا في الشام لم نره إلا قتالاً مع العثمانيين، ولذا كان الجيش الذي دافع عن عكا أو دمشق أو يوم حمص مثلاً من الأكراد والهوارة، فهؤلاء ليسوا شاميين وهم مستأجرون يحاربون مع كل من يمولهم"[٦٣].

ويقترب سليمان أبو عز الدين من آراء كرد علي في تقييم الحدث، فهو وإن كان يأخذ على الحكم المصري بعض الشوائب، فإنه يرى في تلك المرحلة بداية لعصر جديد "انقلبت فيه طرق الحكم من الفوضى إلى النظام، ونثرت في ثناياه بذور النهضتين الأدبية والسياسية في الديار السورية"[٦٤].

(٦٢) المصدر نفسه، ج٣، ٧٢.

(٦٣) المصدر السابق،ج٣، ٧٣.

(٦٤) سليمان أبو عزالدين، **إبراهيم باشا المصري**، ص٣.



الخاتمة:

أظهرت الدراسة اختلاف مواقف المؤرخين في بلاد الشام من حملة إبراهيم باشا المصري، وبدت كتابة التاريخ الخاص بالحملة لدى مؤرخي الحوليات، أقرب للتقليد المتبع والموروث في الكتابة التاريخية في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، الذي يمتد في تقاليده عصورًا سابقة، أما الكتابة التاريخية مطلع القرن العشرين فغدت أكثر نضجاً وقدرة على إعطاء الأحكام، متأثرة بالتطورات التي طرأت على كتابة التاريخ في الغرب، واختلف في التناول والمنهج عن طرائق المؤرخين في القرن التاسع عشر، ومؤرخي القرن العشرين لم يختلفوا في أن حملة إبراهيم باشا كانت بداية زمن جديد وأظهرت الصراع الدولي على المنطقة بشكل واضح، كما أنها عدّت إجراءات إبراهيم باشا بداية التحديث والإصلاح، وذلك بالرغم من مواجهة الناس لها ورفضها أحياناً.

ومن حيث الأسلوب لم يكن المؤرخون الذين عاصروا الحملة قادرين على مغادرة السرد المعتاد، الذي اعتاده كتاب الحوليات واليوميات. ومع أن الحملة المصرية على بلاد الشام كانت مختبراً لمواقف المؤرخين من الأحداث التي تمر بزمانهم، والتي بدا جلياً أنهم غير قادرين على تجاهل تدوينها، فإنها ظلت كتابة في إطار الزمان الذي تطوعوا لتدوين أخباره ولذلك لم تكن قادرة على التخلص من لياقة المؤرخين المنضبطين بتوالي الأحداث وضبطها، وهي أيضًا لم تبتعد كثيرًا عن تصوير حياة الناس، وبلغة عامية أحياناً،

لكنها لم تقصد ذلك التاريخ اليومي، الذي يحضر بكثافة عند مؤرخي اليوميات في بلاد الشام بما فيه من التفاتة ومتابعة سنوية وشهرية ويومية لقضايا الحياة ومنها الأسعار والأمطار والجوائح والفساد والعملة والضرائب وغيرها.

أما من حيث بنية النص، فإن الفكرة الأساسية التي نستنتجها من فحص مدونات التاريخ المزامن لحملة إبراهيم باشا هي أن بناء النص التاريخي جاء على أنقاض الواقع التاريخي، ولم يخرج عن كونه إخباراً عما جرى من وقائع، بدليل التمسك بكلمة الوقائع، إذ اكتفى المؤرخون في التاريخ القريب (مجهول في مذكرات تاريخية ونوفل نعمة الله نوفل)، وفي التاريخ الطويل الأمد (أسد رستم وسليمان أبي عز الدين ومحمد كرد علي،.. إلخ) بتسجيل الحدث بأمانة وعزوف لا مبرر له عن النقد، فكان التماسهم للتوثيق بقصد تثبت الحوادث أكثر من إطلاق الأحكام على الأحداث أو التأمل في أسبابها.

لقد أثبتت تجربة الكتابة التاريخية في بلاد الشام تجاه حملة إبراهيم باشا المصري قدرتها على تثبيت الأحداث أكثر من تفسيرها، إذ إن النصوص وإن نقلت أخباراً بدت للوهلة الأولى وصفاً شاملاً لحادثة واحدة، وصدرت عن عدد من المؤرخين من مناطق مختلفة، فإن المقصد والمعالجة التاريخية للحدث ظلت تقليدية في المصادر المعاصرة للحدث، وفي المصادر البعيدة من الحدث نسبيًا تمّ الاحتفاظ بالحدث وتطوراته، لكن كتابة الوقائع فيما بعد بدت متحررة من



التقليد العربي القديم في الكتابة التاريخية، وهو الاعتناء بالإسناد، أو التمسك بتعاقب الزمن الدقيق للحوادث.

ولعل هذا ما ساعد المؤرخين على تجنب التدخل في النص لإبداء رأي أو تحليل أو تأويل وتفسير. إذ جاء الخطاب التاريخي لحملة إبراهيم باشا غير منفصل عن وقائعه، فأولى المؤرخون المعاصرون للحملة التاريخ التقليدي أو الحدثي بتموجاته الحادة عنايتهم واهتمامهم، وقُدم في وقت مبكر من القرن العشرين مع أسد رستم ومحمد كرد علي ورستم باز وآخرين على أساس أنه مجموعة من الوقائع التي أثرت في تشكل المنطقة وتبلور الأطماع الغربية تجاهها، ومحاولة لجمع الأصول التاريخية للمنطقة.